□ عُلُوُّ الهِمَّةِ في الكتابِ والسُّنَّةِ □

قال تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ **فاستمسك بالذي أُوحي إليك إنك على صراط مستقيم** ﴾ [الزخرف : ٤٣] .

وقال تعالى له : ﴿ **ولربك فاصبر** ﴾ [المدثر :٧] .

وقال تعالى : ﴿ **وأمرْ أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقًا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى** ﴾ [طه : ١٣٢] .

وقال تعالى : ﴿ **رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميًّا** ﴾ [مريم : ٦٥] .

قال البقاعي في نظم الدرر (١٢ / ٢٣٢) :

« اعبده بالمراقبة الدائمة على ما ينبغي له من مثلك ، واصبر صبرًا عظيمًا بغاية جهدك على ما ينبغي الاصطبار عليه كذلك لأجل عبادته ، فإنها لا تكون إلا عن مجاهدة شديدة » .

وقال تعالى : ﴿ **يأيها المزمل قم الليل إلا قليلًا نصفه أو انقص منه قليلًا أو زدْ عليه ورتِّل القرآن ترتيلًا إنا سنُلقي عليك قولًا ثقيلًا إن ناشئة الليل هي أشدُّ وطئًا وأقومُ قيلًا إن لك في النهار سبحًا طويلًا** ﴾ .

إنها دعوة السماء ، وكلام الكبير المتعال .. قم .. قم للأمر العظيم الذي ينتظرك والعبء الثقيل المُهيَّأ لك .. قم للجهد والنصب ، والكدِّ والتعب ، قم فقد مضى وقت النوم والراحة .. قم فتهيَّأ لهذا الأمر واستعدَّ .

وإنها لكلمة عظيمة رهيبة ، تنتزعه ﷺ من دفء الفراش في البيت الهادئ ؛ لتدفع به في الخضمِّ بين الزعازع والأنواء ، وبين الشدِّ والجذب ، في ضمائر الناس ، وفي واقع الحياة سواء .

قيل لرسول الله ﷺ : ﴿ قم ﴾ ، فقام وظل قائمًا بعدها أكثر من عشرين عامًا ! لم يسترحْ ، ولم يسكنْ ، ولم يعش لنفسه ولا لأهله ، قام وظلَّ قائمًا على دعوة الله ، يحمل على عاتقه العبء الثقيل الباهظ ، ولا ينوء به ؛ عبء الأمانة الكبرى في هذه الأرض ، عبء البشرية كلها ، وعبء العقيدة كلها ، وعبء الكفاح والجهاد في ميادين شتى .

حمل عبء الكفاح والجهاد في ميدان الضمير البشري الغارق في أوهام الجاهلية وتصوُّراتها ، المُثقَّل بأثقال الأرض وجواذبها ، المُكبَّل بأوهاق الشهوات وأغلالها ، وقام على دعوة الله ، وعلى المعركة الدائبة في ميادينها المتفرقة ؛ في شظفٍ من العيش ، والدنيا مقبلة عليه ، وفي جهد وكدٍّ ، والمؤمنون يستروحون من حوله ظلال الأمن والراحة ، وفي نَصَبٍ دائم لا ينقطع ... وفي صبر جميل على هذا كله .

إن الذي يعيش لنفسه قد يعيش مستريحًا ، ولكنه يعيش صغيرًا ويموت صغيرًا ، فأما الكبير الذي يحمل هذا العبء الكبير ... فما له والنوم ؟ وما له والراحة ؟ ما له والفراش الدافىء ، والعيش الهادىء والمتاع المريح ؟! ولقد عرف رسولنا ﷺ حقيقة الأمر وقدَّره ، فقال لخديجة رضي الله عنها : « مضى عهد النوم ياخديجة » . أجل ! مضى عهد النوم ، وما عاد منذ اليوم إلا السَّهر والتعب والجهاد الطويل الشاق .

قال تعالى : ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزمًا ﴾ [طه : ١١٥] .

قال ابن جرير الطبري :

« ﴿ **ولم نجد له عزمًا** ﴾ . اختلف أهل التأويل في معنى العزم ها هنا، فقال بعضهم : معناه : الصبر .

قال قتادة : ﴿ **ولم نجد له عزمًا** ﴾ : صبرًا .

وقال آخرون : بل معناه : الحفظ ، قالوا : ومعناه : ولم نجد له حفظًا لما عهدنا إليه .

عن عطية قال : حفظًا لما أمرته .

وقال ابن عباس : لم نجد له حفظًا .

وقال ابن زيد : العزم : المحافظة على ما أمره الله تبارك وتعالى بحفظه والتمسُّك به .

عن ابن عباس قال : لم نجعل له عزمًا .

قال أبو جعفر : وأصل العزم : اعتقاد القلب على الشيء يُقال منه : عزم فلان على كذا : إذا اعتقد عليه ونواه ، ومن اعتقاد القلب : حفظ الشيء ، ومنه : الصبر على الشيء ؛ لأنه لا يجزع جازعٌ من خور قلبه وضعفه، فإذا كان كذلك، فلا معنى لذلك أبلغ مما بيَّنه الله تبارك وتعالى، فيكون تأويله : ولم نجد له عزمَ قلبٍ على الوفاء لله بعهده ، ولا على حفْظ ما عهد إليه »[١] .

اعلم أن التحرُّرَ من رغائب النفس وشهواتها يحفظ للروح حرية الانطلاق من الضرورات عندما تريد ، فلا تستعبدها الرغائب وتقهرها ، فعالي الهِمَّة مَنْ يقول لقيود الأرض : لا ...لا ياقيود الأرض .

* * *

قال تعالى: ﴿واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار إنا أخلصناهم بخالصةٍ ذكرى الدار ﴾ [ص : ٤٥ - ٤٦] .

قال ابن جرير الطبري :

---

(١) تفسير الطبري ٨/٢٢١ - ٢٢٢ .

« قوله: ﴿**أولي الأيدي والأبصار**﴾، ويعني بالأيدي: القوة، يقول: أهل القوّة على عبادة الله وطاعته ، ويعني بالأبصار: أنهم أهل أبصار القلوب ؛ يعني به : أولي العقول الحق .

قال ابن عباس : ﴿ **أولي الأيدي والأبصار** ﴾ أولى القوة والعبادة، ﴿ **والأبصار** ﴾؛ يقول : الفقه في الدين .

وعنه : فُضِّلوا بالقوة والعبادة .

وقال منصور : ﴿ **أولي الأيدي** ﴾ : القوة .

وقال مجاهد : ﴿ **أولي الأيدي** ﴾ : القوة في أمر الله ، وقال : القوة في طاعة الله .

وقال قتادة : أُعطوا قوةً في العبادة ، وبصرًا في الدين .

وقد يمكن أن يكون عَنى بقوله ﴿ **أولي الأيدي** ﴾: أولي الأيدي عند الله بالأعمال الصالحة ، فجعل الله أعمالهم الصالحة التي عملوها في الدنيا أيديًا لهم عند الله ؛ تمثيلًا لها باليد، تكون عند الرجل الآخر »[١] .

قال ابن كثير :

«يعني بذلك: العمل الصالح والعلم النافع، والقوة في العبادة والبصيرة النافذة »[٢] .

قال ابن جرير في تفسيره (١٠ / ١٧١ - ١٧٢) :

« ﴿ **إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار** ﴾ ؛ أي أنهم كانوا يذكِّرون الناس الدار الآخرة ، ويدعونهم إلى طاعة الله والعمل للدار الآخرة .

قال قتادة : بهذه أخلصهم الله ، كانوا يدعون إلى الآخرة وإلى الله .

وقال مجاهد : بذكْر الآخرة ، فليس لهم همٌّ غيرها .

---

(١) تفسير الطبري ١٠/١٧٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ٧/٦٦ .

وقال ابن جرير : ﴿ **إنا أخلصناهم بخالصة** ﴾: هي ذكرى الدار الآخرة ، فعملوا لها في الدنيا ؛ لأن ذلك من طاعة الله ، والعمل للدار الآخرة » .

قال ابن كثير (٧ / ٦٧) :

« قال مجاهد : جعلناهم يعملون للآخرة ، ليس لهم همٌّ غيرها ، وكذا قال السدي : ذكرُهم للآخرة ، وعملُهم لها .

وقال مالك بن دينار : نزع الله من قلوبهم حُبَّ الدنيا وذكْرها ، وأخلصهم بحب الآخرة وذكْرها ، وكذا قال عطاء الخراساني .

وقال سعيد بن جبير : يعني بالدار الجنة ؟ يقول : أخلصناها لهم بذكرهم لها » .

« أخلصهم الله بصفة خاصة ؛ ليذكروا الدار الآخرة ، ويتجردوا من كل شيء سواها ، فهذه ميَّزتهم ورفعتْهم وهذه جعلتهم عند الله مُختارين أخيارًا »[1] .

* * *

قال تعالى : ﴿ وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظةً وتفصيلًا لكل شيء فخذْها بقوة وأمرْ قومَك يأخذوا بأحسنها سأوريكم دار الفاسقين ﴾

[الأعراف : ١٤٥] .

الأمر الإلهي الجليل لموسى عليه السلام أن يأخذ الألواح بقوة وعزم . إنه كذلك يوحي بالمنهج الواجب في أخْذ كل أمة لكل عقيدة تأتيها .

إن العقيدة أمْر هائل عند الله سبحانه ، وأمْر هائل في حساب هذا

---

(١) الظلال ٥ / ٣٠٢٢ .

الكون ، وقدر الله الذي يصرفه .

وأمرٌ له هذه الخطورة عند الله ، وفي حساب الكون ، وفي طبيعة الحياة ، وفي تاريخ الإنسان - يجب أن يُؤخذ بقوة ، وأن تكون له جدِّيَّته في النفس ، وصراحتُه وحسمُه .

ولا ينبغي أن يُؤخذ في رخاوة ، ولا في تميُّع ، ولا في ترخُّصٍ ؛ ذلك أنه أمْر هائلٍ في ذاته ، فضلًا على أن تكاليفه باهظة ، لا يصبر عليها مَنْ طبيعتُه الرخاوةُ والتميُّع والترخُّصُ، أو من يأخذ الأمر بمثل هذه المشاعر، ويهرب من العقيدة وتكاليفها ، ويسير مع القطيع ؛ لأن السير مع القطيع لا يُكلِّفه شيئًا . وليس معنى هذا - بطبيعة الحال - هو التشدُّد والتعنُّت والتعقيد والتقبُّض، فهذا ليس من طبيعة دين الله، ولكنّ معناه الجدّ والهِمَّة، والحسم والصراحة، وهي صفات ومشاعر أخرى غير مشاعر التشدُّد والتعنُّت والتعقيد والتقبُّض »[١] .

لقد تحمَّل موسى تكاليف العقيدة ، وقام بأمر الدعوة كأكمل ما يكون القيام ، وعانى من أمة القبط ، وصلف فرعون وغروره وتكبُّره ... وتحمَّل ما تحمَّل من بني إسرائيل ... وهيَّأ نفسه ، وأخذها بأشدِّ ما تؤخذ به النفوس من العبادة ؛ تهيُّؤًا للقاء الله .

قال تعالى : ﴿ **وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتمَّ ميقاتُ ربِّه أربعين ليلة وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين** ﴾ [الأعراف : ١٤٢] .

قال ابن كثير :

« قال المفسرون : فصامها موسى عليه السلام ، فلما تمّ الميقات استاك بلحاء شجر ، فأمره الله بأن يُكمل بعشر أربعين ، ولما تمَّ الميقات عزم موسى

---

(١) الظلال ٣/١٣٧٠ بتصرف .

على الذهاب إلى الطور؛ شوقًا للقاء الله والوقوف بين يديه، وقد ذاق حلاوته، فانظر إلى عُلُوِّ همَّته . قال تعالى : ﴿ **وما أعجلك عن قومك ياموسى قال هم أولاء على أثري وعجلتُ إليك رب لترضى** ﴾ [طه: ٨٣- ٨٤] » .

* * *

قال تعالى : ﴿ اصبرْ على ما يقولون واذكرْ عبدنا داود ذا الأيد إنه أوَّاب ﴾ [ص : ١٧] .

قال ابن جرير الطبري (١٠ / ١٣٦) :

« يعني بقوله : ﴿ **ذا الأيد** ﴾ : ذا القوة والبطش الشديد في ذات الله ، والصبر على طاعته .

قال مجاهد : ذا القوة في طاعة الله .

وقال قتادة : أُعطي قوة في العبادة ، وفقهًا في الإسلام .

وقال السدي : ذا القوة في طاعة الله . وكذا قال ابن زيد : ذا القوة في عبادة الله .

وقد قال رسول الله ﷺ : « كان داودُ أعبدَ البشر »(١) .

وقال ﷺ : « أحبُّ الصيام إلى الله صيامُ داود ؛ كان يصوم يومًا ويُفطر يومًا ، وأَحبُّ الصلاة إلى الله صلاة داود ؛ كان ينامُ نصف الليل ، ويقوم ثُلُثَهُ ، وينام سُدسَه »(٢) .

* * *

---

(١) حسن : رواه الترمذي والحاكم في المستدرك عن أبي الدرداء ، ورواه البخاري في التاريخ عن أبي الدرداء ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٣٢٩ .

(٢) رواه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه .

وقال تعالى : ﴿وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرني فردًا وأنت خير الوارثين فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبًا ورهبًا وكانوا لنا خاشعين﴾ [الأنبياء : ٨٩ - ٩٠] .

* * *

قال تعالى : ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكمَ صبيًّا ﴾ [مريم : ١٢].

« ورث يحيى أباه زكريا ، ونودي ليحمل العبء ، وينهض بالأمانة في قوة وعزم ، لا يضعف ولا يتهاون ولايتراجع عن تكاليف الوراثة .

آتاه الله الحكمة صبيًّا، فكان فذًّا في زاده، كما كان فذًّا في اسمه وميلاده فالحكمة تأتي متأخرة ، ولكن يحيى قد زُوِّد بها صبيًّا »[1] .

* * *

وقال تعالى عن بني إسرائيل : ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطورَ خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾ [البقرة : ٦٣] .

* * *

وقال تعالى : ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطورَ خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأُشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ﴾ [البقرة : ٩٣] .

* * *

---

(١) الظلال ٤ / ٢٣٠٤ .

وقال تعالى : ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظُلَّة وظنُّوا أنه واقعٌ بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾ [الأعراف : ١٧١].

« لابدَّ من أخْذ عهْد الله بقوة وجدٍّ ، واستجماع نفس وتصميم .. لابدّ من تذكُّر ما فيه ، واستشعار حقيقته ، والتكيُّف بهذه الحقيقة ؛ كي لا يكون الأمر كله مُجرَّد حماسة وحميَّة وقوة . فعهدُ الله منهجُ حياة ، منهجٌ يستقر في القلب تصوُّرًا وشعورًا ، ويستقر في الحياة وضعًا ونظامًا ، ويستقر في السلوك أدبًا وخُلُقًا ، وينتهي إلى التقوى والحساسية برقابة الله وخشية المصير .

ولكن هيهات ! لقد أدركت إسرائيل نحيزتها ، وغلبت عليها جِبِلَّتها » .

* * *

وقال تعالى : ﴿ ولكلٍّ وجهة هو مولِّيها فاستبقوا الخيرات أين ما تكونوا يأتِ بكم الله جميعًا إن الله على كل شيء قدير ﴾ [البقرة : ١٤٨] .

* * *

وقال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مُصدِّقًا لما بين يديه من الكتاب ومُهيمنًا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكلٍّ جعلنا منكم شرعة ومنهاجًا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعًا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾ [المائدة : ٤٨] .

* * *

وقال تعالى : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضُها السموات والأرض أُعدَّت للمتقين ﴾ [آل عمران : ١٣٣] .

هذا ندبٌ وأمرٌ من الله في فعْل الخيرات ، والمسارعة في نيل القُرُبات فمنِ المُشمِّر عالي الهِمَّة في الطاعات ... بانوا وكأنهم ما كانوا ..

* * *

قال تعالى : ﴿ وأنّ إلى ربك المنتهى ﴾ [النجم : ٤٢] .

قال ابن قيم الجوزية :

« مُتضمنٌ لكنز عظيم ، وهو أن كل مراد إن لم يُرد لأجله ويتصل به ؛ فهو مُضمحلٌّ منقطع ، فإنه ليس إليه المنتهى ، وليس المنتهى إلا الذي انتهت إليه الأمور كلها ، فانتهت إلى خلقه ومشيئته وحكمته وعلْمه ، فهو غاية كل مطلوب ، وكل محبوب لا يُحبُّ لأجله فمحبَّتُه عناءٌ وعذابٌ ، وكلُّ عمل لا يُراد لأجله فهو ضائع وباطل ، وكل قلب لا يصل إليه فهو شقيٌّ محجوبٌ عن سعادته وفلاحه ، فاجتمع ما يُراد منه كله في قوله : **﴿ وإنْ من شيءٍ إلا عندنا خزائنه ﴾** [الحجر : ٢١] ، واجتمع ما يُراد له في قوله : **﴿ وأنَّ إلى ربك المنتهى ﴾**، فليس وراءه سبحانه غاية تُطلب ، وليس دونه غاية إليها المنتهى وتحت هذا سِرٌّ عظيم من أسرار التوحيد ، وهو أن القلب لا يستقر ، ولا يطمئن ، ولا يسكن ، إلا بالوصول إليه ، وكل ما سواه مما يُحَبُّ ويُراد فمرادٌ لغيره .

وليس المراد المحبوب لذاته إلا واحد إليه المنتهى .

ويستحيل أن يكون المنتهى إلى اثنين كما يستحيل أن يكون ابتداء المخلوقات من اثنين . فمن كان انتهاء محبته ورغبته وإرادته وطاعته إلى غيره ؛

بطُل عليه ذلك ، وزال عنه ، وفارقه أحوج ما يكون إليه . ومن كان انتهاء محبته ورغبته ورهبته وطلبه هو سبحانه ؛ ظَفَر بنعيمه ولذَّته وبهجته وسعادته أبد الآباد »[١] .

« إن في القلب شعثًا : لا يلمُّه إلا الإقبالُ على الله .

وفيه وحشةٌ : لا يُزيلها إلا الأُنسُ به في خلوته .

وفيه حُزْنٌ : لا يُذهبه إلا السرورُ بمعرفته ، وصدق معاملته .

وفيه قلق : لا يُسكنه إلا الاجتماعُ عليه ، والفرارُ منه إليه .

وفيه نيرانُ حسراتٍ : لا يُطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه ، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه .

وفيه طلبٌ شديدٌ : لا يقف دون أن يكون هو وحده مطلوبه .

وفيه فاقةٌ : لا يسدها إلا محبته ودوام ذكْره والإخلاص له ، ولو أُعطي الدنيا وما فيها لم تُسَدَّ تلك الفاقة منه أبدًا .

وفيه مرضٌ : لا يشفيه إلا لقاء مولاه في يوم المزيد » .

* * *

قال تعالى : ﴿ ففرُّوا إلى الله إني لكم منه نذيرٌ مُبين ﴾ [الذاريات : ٥٠] .

مَنْ صحَّ فِراره إلى الله صحَّ قرارُه مع الله .

« والتعبير بلفظ الفرار عجيبٌ حقًّا ، وهو يوحي بالأثقال والقيود والأغلال والأوهاق التي تشدُّ النفس البشرية إلى هذه الأرض ، وتثقلها عن الانطلاق ، وتحاصرها وتأسرها وتدعها في عقال ، وبخاصة أوهاق الرزق والحرص والانشغال بالأسباب الظاهرة للنصيب الموعود . ومن ثَمَّ يجيء

---

(١) الفوائد لابن القيم (١٩٦ - ١٩٧) .

الهتاف قويًّا للانطلاق والتملُّص والفرار إلى الله من هذه الأثقال والقيود»[١].

ومن اللفتات الجميلة : أن الله حين ذكر الدنيا قال : ﴿ **فامشوا في مناكبها** ﴾، وحين ذكر الذكْر فيها قال : ﴿ **فاسعوا إلى ذكر الله** ﴾، وحين تكلَّم عن الجنة قال : ﴿ **وسارعوا** ﴾، و ﴿ **سابقوا** ﴾، وحين تكلَّم عن العليِّ قال : ﴿ **ففروا إلى الله** ﴾، ﴿ **إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلبٌ أو ألقي السمع وهو شهيد** ﴾ .

* * *

قال تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينَّهم سُبُلَنا وإن الله لمع المحسنين ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

قال ابن كثير (٦ / ٣٠٣) :

« يعني الرسولَ – صلوات الله وسلامه عليه – وأصحابَه وأتباعَه إلى يوم الدين . ﴿ **لنهدينهم سُبُلَنا** ﴾ : أي لنبصرنَّهم سُبُلنا ؛ أي طرقنا في الدنيا والآخرة .

قال أحمد بن أبي الحواري : حدَّثنا عباس الهمداني أبو أحمد – من أهل عكَّا – في قول الله : ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين** ﴾ ؛ قال : الذين يعملون بما لا يعلمون ، يهديهم لما لا يعلمون . قال أحمد بن أبي الحواري : فحدَّثتُ به أبا سليمان الداراني فأعجبه ، وقال : ليس ينبغي لمن أُلهم شيئًا من الخير أن يعمل به حتى يسمعه في الأثر ، فإذا سمعه في الأثر عمل به ، وحمد الله حين وافق ما في نفسه » .

---

(١) الظلال ٦ / ٣٣٨٦ .

وقال البقاعي في نظم الدرر (١٤ / ٤٨١ - ٤٨٢) :

« ﴿ **والذين جاهدوا** ﴾ ؛ أي أوقعوا الجهاد بغاية جهدهم على ما دلَّ عليه بالمفاعلة. ﴿**فينا**﴾: أي بسبب حقِّنا ومراقبتنا؛ خاصة بلزوم الطاعات، من جهاد الكفار وغيرهم، من كل ما ينبغي الجهاد فيه، بالقول والفعل، في الشدة والرخاء، ومخالفة الهوى عند هجوم الفتن وشدائد المحن، مُستحضرين لعظمتنا . ﴿ **لنهدينهم** ﴾ بما نجعل لهم من النور الذي لا يضلُّ مَنْ صَحِبَه ، هداية تليق بعظمتنا . ﴿ **سُبُلَنا** ﴾ التي لا سُبُل غيرها ، علمًا وعملًا ونكون معهم بلُطفنا ومعونتنا. ﴿ **وإن الله لمع المحسنين** ﴾ بالنصر والمعونة في دنياهم، والثواب والمغفرة في عقباهم .

قال المحاسبي : مَنْ صحَّح باطنه بالمراقبة ؛ زيَّن الله ظاهره بالمجاهدة واتباع السنة » .

وقال الشيخ سيد قطب في الظلال (٥ / ٢٧٥٢) :

« الذين جاهدوا في الله ليصلوا إليه ، ويتصلوا به . الذين احتملوا في الطريق إليه ما احتملوا ، فلم ينكصوا ولم ييأسوا . الذين صبروا على فتنة النفس ، وعلى فتنة الناس . الذين حملوا أعباءهم ، وساروا في ذلك الطريق الطويل الشاق الغريب .. أولئك لن يتركهم الله وحدهم، ولن يُضيع إيمانهم ، ولن ينسى جهادهم . إنه سينظر إليهم من عليائه فيرضاهم ، وسينظر إلى جهادهم إليه فيهديهم، وسينظر إلى محاولتهم الوصول فيأخذ بأيديهم، وسينظر إلى صبرهم وإحسانهم فيُجازيهم خير الجزاء » .

« من رفع إليهم خطوة نال منهم حظوة ، ومن ترك فيهم شهوة وجد منهم صفوةً .

الذين زيَّنوا ظواهرهم بالمجاهدات حَسُنت سرائرهم بالمشاهدات .

الذين شغلوا ظواهرهم بالوظائف أوصلوا إلى سرائرهم اللطائف .

الذين قاسوا فيهم التعب من حيث الصلوات جازاهم بالطرب من

حيث المواصلات .

ويقال : الجهاد فيه أولًا بترك المُحرَّمات ، ثم بترك الشُّبُهات ، ثم بترك الفضلات ، ثم بقطع العلاقات ، والتنقِّي من الشواغل في جميع الأوقات »[1] .

* * *

وقال تعالى: ﴿نحن نقصُّ عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربُّنا ربُّ السموات والأرض لن ندعوَ من دونه إلهًا لقد قلنا إذًا شططًا﴾ [الكهف : ١٣- ١٤] .

إنهم فتية أشدَّاء في أجسامهم ، أشدَّاء في إيمانهم ، أشدَّاء في استنكار ما عليه قومهم ، ربط الله على قلوبهم ، فإذا هي ثابتة راسخةٌ ، مُطمئنة إلى الحق الذي عرفت ، مُعتزّةٌ بالإيمان الذي اختارت . ﴿ **إذ قاموا** ﴾ والقيام حركة تدل على العزم والثبات . التفت هؤلاء الفتية إلى ما عليه قومهم فاستنكروه ، وفرُّوا بدينهم ، واختاروا الكهف على زينة الحياة .

﴿ وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشرْ لكم ربُّكم من رحمته ويهيىء لكم من أمركم مرفقًا ﴾ .

« وهنا ينكشف العجب في شأن القلوب المؤمنة ، فهؤلاء الفتية الذين يعتزلون قومهم ، ويهجرون ديارهم ، ويُفارقون أهلهم ، ويتجردون من زينة الأرض ومتاع الحياة. هؤلاء الذين يأوون إلى الكهف الضيّق الخشن المُظلم؛ هؤلاء يستروحون رحمة الله ، ويحسُّون هذه الرحمة ظليلةً فسيحةً مُمتدةً ، ولفظة ﴿**ينشر**﴾ تُلقي ظلال السعة والبحبوحة والانفساح ، فإذا الكهف

(١) لطائف الإشارات ٥/٨٨ ، ١٠٦ .

فضاء فسيح رحيب وسيع ، تنتشر فيه الرحمة ، وتتسع خيوطها ، وتمتد ظلالها ، وتشملهم بالرفق واللين والرخاء ، إن الحدود الضيقة لتنزاح ، وإن الجدران الصلدة لترقُّ ، وإن الوحشة الموغلة لتشفُّ ، فإذا الرحمة والرفق والراحة والارتفاق .

إنه الإيمان !!

وما قيمة الظواهر ؟ وما قيمة القيم والأوضاع والمدلولات التي تعارفَ عليها الناس في حياتهم الأرضية ؟ إن هنالك عالمًا آخر في جنبات القلب المغمور بالإيمان المأنوس بالرحمن ، عالمًا تُظلِّله الرحمة والرفق والاطمئنان والرضوان »[1] .

لا تُسمع قصة الأحباب أعلى وأجلَّ مما تُسمع من الأحباب ، قال عزَّ من قائل : ﴿ نحن نقص عليك ﴾، وأنشدوا :

وحدَّثتني يا سعد عنها فزدتني   حنينًا فزدني من حنينك ياسعدُ

﴿ **إنهم فتية آمنوا بربهم** ﴾ .

يُقال : إنهم فتية ؛ لأنهم آمنوا على الوهلة بربهم ، آمنوا من غير مهلة ، لما أتتهم دواعي الوصلة .

ويقال : فتية ؛ لأنهم قاموا لله ، وما استقروا حتى وصلوا إلى الله .

﴿ **وزدناهم هدى وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض..** ﴾ .

لاطفهم بإحضارهم ، ثم كاشفهم في أسرارهم ، بما زاد من أنوارهم ، فلقّاهم أوَّلًا التبيين ، ثم رقَّاهم عن ذلك باليقين .

﴿ **وربطنا على قلوبهم** ﴾ بزيادة اليقين حتى مَتَعَ نهارُ معارفهم ، واستضاءت شموسهم ، ولم يبق للتردُّد مجال في خواطرهم ، وتمَّت سكينة

---

(١) الظلال .

قلوبهم .

أفناهم عن الأغيار ، وأغناهم عن التفكُّر بما أولاهم من نور التبصُّر ، فلم تسنح فيها هواجس التخمين ، ولا وساوس الشياطين .

﴿ إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض ﴾ .

قاموا لله بالله ، ومَنْ قام بالله فُقِدَ عما سوى الله .

ويُقال : مَنْ قام لله لم يقعد حتى يصل إلى الله .

ويُقال : قعدت عنهم الشهوات فصحّ قيامُهم بالله .

﴿ وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشرْ لكم ربكم من رحمته ويهيىء لكم من أمركم مرفقًا ﴾ .

العزلة عن غير الله توجب الصلة بالله ، بل لا تحصل الوصلة بالله إلا بعد العزلة عن غير الله .

ويُقال : لما اعتزلوا ما عُبد من دون الله ؛ آواهم الحق إلى كنف رعايته ، ومهَّد لهم مثوى في كهف عنايته .

ويُقال : من تبرَّأ من اختياره في احتياله ، وصدق رجوعه إلى الله في أحواله ، ولم يستعن بغير الله من أشكاله وأمثاله ؛ آواه إلى كنف أفضاله ، وكفاه جميع أشغاله ، وهيَّأ له محلًّا يتفيَّأ فيه في برد ظلاله بكمال إقباله .

ياأخي ، انظر إلى ما في القصة **﴿ وكلبهم باسطٌ ذراعيه بالوصيد ﴾**، **﴿ سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ﴾** .

كلب خطا مع أحبائه خطواتٍ ، فإلى يوم القيامة يُتلى **﴿ وكلبهم باسط ... ﴾** الآية، فهل ترى أن مسلمًا يصحب أحبابه من وقت شبابه إلى وقت مشيبته يردُّه يوم القيامة خائبًا ؟!

ويُقال : كلب بسط يده على وصيد الأولياء ، فإلى يوم القيامة يُقال : **﴿ وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد ﴾**، فهل إذا رفعها مسلم إلى الله خمسين سنة ، تُرى يردُّها خائبة ؟ هذا بكرمه لا يكون .

ويُقال : لما صحبهم الكلب ؛ لم تضرَّه نجاسة صفته ، ولا خساسة قيمته .

أخي ، إن كنت مع الأبرار وفي جوارهم ؛ حَمَلُوكَ إلى ديارهم . كن في نواحيهم ؛ يصوِّت بك صوت حاديهم .

* * *

قال تعالى : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالمٌ لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابقٌ بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير ﴾ [فاطر : ٣٢] .

قال ابن كثير :

« **﴿ ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾** : وهو الفاعل للواجبات والمُستحَبَّات ، التارك للمُحرَّمات والمكروهات .

فإذا تقرَّر هذا ، فإن الآية عامَّة في جميع الأقسام الثلاثة في هذه الأمة ، فالعلماء أغبطُ الناس بهذه النعمة ، وأولى الناس بهذه الرحمة ، « وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، إن العلماء هم ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يوِّرثوا دينارًا ولا درهمًا ، وإنما ورَّثوا العلم ، فمن أخذ به أخذ بحظٍّ وافر » .

قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في قوله : **﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا ﴾** قال : هم أمة محمد ﷺ ؛ ورّثهم الله كل كتاب أنزله ، فظالُمهم يُغفر له ، ومقتصدُهم يُحَاسبُ حسابًا يسيرًا ، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب .

وقال ابن عباس: السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله ، والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة

بشفاعة محمد ﷺ .

قالت عائشة رضي الله عنها : أما السابق بالخيرات : فقد مضى على عهد رسول الله ﷺ ، شهد له رسول الله ﷺ بالحياة والرزق ، وأما المقتصد : فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به ، وأما الظالم لنفسه : فمثلي ومثلكم . قال : فجعلت نفسها معنا .

قال ابن كثير: وهذا منها رضي الله عنها، من باب الهضم والتواضع، وإلا فهي من أكبر السابقين بالخيرات ؛ لأن فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام .

قال كعب الأحبار: تماسّت مناكبهم ورَبِّ كعب، ثم أعطوا الفضل بأعمالهم .

وقال محمد بن الحنفية : إنها أمة مرحومة ، الظالم مغفورٌ له ، والمقتصد في الجنان عند الله ، والسابق بالخيرات في الدرجات عند الله »[1] .

الظالم من غلبت زلّاته ، والمقتصد من استوت حالاته ، والسابق من ازدادت حسناته .

« هذه كلمات جديرة بأن توحي لهذه الأمة بكرامتها على الله ، كما توحي إليها بضخامة التَّبِعة الناشئة عن هذا الاصطفاء وعن تلك الوراثة، وهي تَبِعة ضخمة ذات تكاليف، فهل تسمع الأمة المصطفاة وتستجيب ؟! »[2] .

* * *

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/٥٣٢- ٥٣٥ ، انظر تفسير الطبري ٢٢/٩٠ .

(٢) الظلال ٥/٢٩٤٤ .

قال تعالى : ﴿ والسابقون السابقون أولئك المقربون ﴾ [الواقعة : ١٠] .

قال الحسن وقتادة : ﴿ **والسابقون السابقون** ﴾ : أي من كل أمة .

وقال ابن سيرين : الذين صلَّوا للقبلتين .

وقال مجاهد : هم الأنبياء عليهم السلام .

وقال عثمان بن أبي سودة : أَوَّلُهم رواحًا إلى المسجد ، وأوّلُهم خروجًا في سبيل الله .

قال ابن كثير :

« وهذه الأقوال كلها صحيحة ، فإن المراد بالسابقين هم المبادرون إلى فعل الخيرات كما أمروا ، كما قال تعالى : ﴿ **سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض** ﴾ . فمن سابق في هذه الدنيا وسبق إلى الخير ؛ كان من السابقين إلى الكرامة ، فإن الجزاء من جنس العمل ، وكما تدين تُدان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**أولئك المقربون في جنات النعيم**﴾»[1] .

قال ابن كثير :

« وقد اختلفوا في المراد بقوله: ﴿**ثُلَّةٌ من الأولين وقليلٌ من الآخرين**﴾، فقيل : المراد بالأولين : الأمم الماضية ، وبالآخرين : هذه الأمة . هذا رواية عن مجاهد والحسن البصري ؛ رواها عنهما ابن أبي حاتم ، وهو اختيار ابن جرير .

وهذا الذي اختاره ابن جرير هاهنا فيه نظرٌ ، بل هو قول ضعيف ؛ لأن هذه الأمة هي خير الأمم بنصِّ القرآن ، فيبعُدُ أن يكون المقربون في غيرها أكثر منها ، اللهم إلا أن يُقابل مجموع الأمم بهذه الأمة . والظاهر أن المقربين من هؤلاء أكثر من سائر الأمم ، والله أعلم .

فالقول الثاني في هذا المقام هو الراجح ، وهو أن يكون المراد بقوله :

(١) تفسير ابن كثير ٧/٤٩٠ - ٤٩١ .

﴿**ثلة من الأولين**﴾: أي من صدر هذه الأمة، ﴿**وقليل من الآخرين**﴾: أي من هذه الأمة .

قال الحسن : ﴿ **ثلة من الأولين** ﴾ : ثُلَّةٌ ممن مضى من هذه الأمة .

وعن محمد بن سيرين أنه قال في هذه الآية : ﴿ **ثلة من الأولين وقليل من الآخرين** ﴾ كانوا يقولون - أو يرجون أن يكونوا - كلهم من هذه الأمة .

فهذا قول الحسن وابن سيرين أن الجميع من هذه الأمة ، ولا شكَّ أن أوَّل كل أمة خيرٌ من آخرها ، فيُحتمل أن يعُمَّ الأمر جميع الأمم ؛ كل أمة بحسبها .

ولهذا ثبت في الصحاح وغيرها من غير وجه ، أن رسول الله ﷺ قال : « خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ... »[1] .

أما الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عمَّار بن ياسر قال : قال رسول الله ﷺ : « مثل أمتي مثل المطر : لا يُدرى أوَّلُه خيرٌ أم آخره»[2]. فهذا الحديث - بعد الحكم بصحة إسناده - محمولٌ على أن الدين كما هو محتاج إلى أول الأمة في إبلاغه إلى مَنْ بعدهم ؛ كذلك هو محتاج إلى القائمين به في آخرها ، وتثبيت الناس على السنة وروايتها وإظهارها ، والفضل للمتقدم . وكذلك الزرع الذي يحتاج إلى المطر الأول وإلى المطر الثاني ، ولكن العمدة الكبرى على الأول ، واحتياج الزرع إليه آكدُ ، فإنه لولاه ما

---

(١) رواه البخاري ومسلم ، والترمذي وابن ماجه ، وأحمد ، وابن حبان ، وأبو يعلى ، والطبراني في الكبير ، والبيهقي في السنن .

(٢) صحيح : أخرجه أحمد عن عمار ، وأحمد والترمذي عن أنس ، والطبراني في الكبير عن ابن عمر ، وعن ابن عمرو ، ورواه الطيالسي ، وابن حبان ، وأبو نعيم في الحلية .

نبت في الأرض ، ولا تعلَّق أساسُه فيها . والغرض أن هذه الأمة أشرف من سائر الأمم، والمقربون فيها أكثر من غيرها وأعلى منزلةً، لشرف دينها، وعِظَمِ نبيِّها ﷺ »[1] .

أخي ، إن كنتَ عالي الهمة ستحلُّ قريبًا من أحبابك ، وتكون يومًا مع أشكالك .

* * *

قال تعالى : ﴿ فأما إن كان من المقربين فرَوْحٌ وريحانٌ وجنةُ نعيم ﴾ [الواقعة : ٨٨ ، ٨٩] .

الألفاظ ذاتها تقطر رِقَّةً ونداوة ... وتُلقي ظلال الراحة الطيبة ، والنعيم اللِّين ، والأنس الكريم .

قال ابن كثير عن المقربين في تفسيره لهذه الآيات :

«هم الذين فعلوا الواجبات والمُستَحبَّات، وتركوا المُحرَّمات والمكروهات وبعض المباحات، فلهم رَوْحٌ وريحان، وتُبشِّرهم الملائكة بذلك عند الموت. والروح والريحان معناهما : أي رحمة ورزق وفرح وسرور » .

قال القشيري في لطائف الإشارات (٦ / ٩٦) :

« يُقال : الرَّوْحُ لقلوبهم ، والريحانُ لنفوسهم ، والجنة لأبدانهم .

ويُقال : رَوْح في الدنيا ، وريحانٌ في الجنة ، وجنةُ نعيمٍ في الآخرة .

ويُقال : رَوْحٌ وريحانٌ مُعجَّلان ، وجنةُ نعيم مؤجَّلة .

ويُقال : رَوْحُ نسيم القُرْب ، وريحانُ كمالِ البسطِ، وجنةُ نعيم في محلِّ المُناجاة .

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٩٣/٧ .

ويُقال : رَوْحُ رؤية الله ، وريحانُ سماعِ كلامه بلا واسطة ، وجنةُ نعيم أن يدوم هذا ولا ينقطع في الجنة » .

* * *

قال تعالى : ﴿ واصبرْ نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعدُ عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تُطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمرُهُ فُرُطًا ﴾ .[الكهف : ٢٨]

الله غايتهم ، يتوجَّهون إليه بالغداة والعشي ، لا يتحوَّلون عنه ، ولا يبغون إلا رضاه ، وما يبتغونه أجلُّ وأعلى من كل ما يبتغيه طُلَّاب الحياة .

اصبرْ نفسك مع هؤلاء ، صاحبْهم وجالسْهم وعلِّمْهم ، ففيهم الخير ، وعلى مثلهم تقوم الدعوات .

فالدعوات لا تقوم على من يعتنقونها لأنها غالبة، ومن يعتنقونها ليقودوا بها الأتباع ، ومن يعتنقونها ليُحقِّقوا بها الأطماع ، وليتَّجِروا بها في سوق الدعوات ، تُشترى منهم وتُباع ؛ إنما تقوم الدعوات بهذه القلوب التي تتجه إلى الله وحده خالصةً له ، لا تبتغي جاهًا ولا متاعًا ولا انتفاعًا ، إنما تبتغي وجهه وترجو رضاه .

يُريدون وجهه ، وداوموا دعاءهم ربَّهم بالغداة والعشي ، ونظروا إلى الله بقلوبهم ، فأمر رسوله ﷺ بألَّا يرفع بصره عنهم ، ولا يُقلع عنهم نظره .

لا تقطع اليوم عنهم نظرك ، فإنا لا نمنع غدًا نظرهم عنَّا .

آويناهم في الدنيا بعظمائنا ، وفي عقباهم بكرائمنا .

منهم عمَّار بن ياسر ، الذي قال فيه رسول الله ﷺ : « مُلِئ إيمانًا إلى مُشاشه »[1] .

---

(١) إسناده صحيح : رواه البزار من حديث عائشة ، وقال الحافظ في الفتح ٧ / ٩٢ : وإسناده صحيح .

إن زينة الحياة الدنيا لا ترتفع إلى ذلك الأفق العالي الذي يتطلع إليه مَنْ يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه .

أما الهامات المتشامخة التي لا تُخفِّف من غلوائها ، ولا تُطامن من كبريائها ، فهي وأقوال أصحابها سفهٌ ضائع ، لا يستحق إلا الإغفال ؛ جزاءَ ما غفلوا عن ذكر الله .

هذا دين رفيع .. لا يُعرض عنه إلا مطموسٌ ، ولا يعيبُه إلا منكوسٌ ، ولا يغفلُ عنه ويُحاربُه إلا موكوسٌ .

* * *

قال تعالى : ﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمنٌ فأولئك كان سعيُهم مشكورًا ﴾ [الإسراء : ١٩] .

الذي يُريد الآخرة لابدَّ أن يسعى لها سعيها ، فيؤديَ تكاليفها ، وينهض بتَبِعاتها ، ويُقيم سعْيه لها على الإيمان ، وليس الإيمان بالتمني ، ولكن ما وقر في القلب وصدَّقه العمل . والسعي للآخرة يمدُّ بالبصر إلى آفاقٍ أعلى ، فلا يكون المتاع في الأرض هو الهدف والغاية ، ولا ضير بعد ذلك من المتاع حين يملك الإنسان نفسه ، فلا يكون عبدًا لهذا المتاع .

وإذا كان الذي يُريد العاجلة ينتهي إلى جهنم مذمومًا مدحورًا ، فالذي يُريد الآخرة ويسعى لها سعيها ؛ ينتهي إليها مشكورًا ، يتلَّقى التكريم من الملأ الأعلى، جزاءَ السعي الكريم لهدفٍ كريم، وجزاء التطلُّع إلى الأفق البعيد الوضيء .

إن الحياة للأرض حياةٌ تليقُ بالديدان والزواحف والحشرات والهوامّ

والوحوش والأنعام ، فأما الحياة للآخرة فهي الحياة اللائقة بالإنسان الكريم على الله ، الذي خلقه فسوَّاه ، وأودع روحه ذلك السِّر الذي ينزع به إلى السماء ، وإنْ استقرَّت على الأرض قدماه . إنها رفرفة الروح إلى آفاق لائقة بكمال الإنسان ، أما الذين يقفون عند الحياة الدنيا ؛ بما فيها من نقصٍ وهبوطٍ ، ويرضونها ويستغرقون فيها ، فلا يُنكرون فيها نقصًا ، ولايُدركون أنها لا تصلح أن تَكون نهاية البشر ، فإنها تهبط بهم ثم تهبط ؛ لأنهم لا يرفعون رؤوسهم إلى قمة ، ولا يتطلَّعون بأبصارهم إلى أفق ، إنما يخفضون رؤوسهم وأبصارهم دائمًا إلى هذه الأرض وما عليها .

* * *

قال تعالى : ﴿ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجاتٍ وأكبر تفضيلًا ﴾ [الإسراء : ٢١] .

« من شاء التفاوت الحق ، ومن شاء التفاضُل الضخم ، فهو هناك في الآخرة . هنالك في الرقعة الفسيحة ، والآماد المتطاولة التي لا حدود لها... وفي ذلك فليتنافس المُتنافسون، لا في متاع الدنيا القليل الهزيل»[١].

* * *

(١) الظلال ٤ / ٢٢١٨ - ٢٢١٩ .

قال تعالى : ﴿ إن الأبرار لفي نعيم على الأرائك ينظرون تعرف في وجوههم نضرة النعيم يُسقون من رحيقٍ مختوم ختامُه مسكٌ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ [المطففين : ٢٢ - ٢٦] .

« ﴿ **إن الأبرار لفي نعيم** ﴾ اليوم وغدا ؛ اليوم في رَوْح العرفان ، وراحة الطاعة والإحسان ، ونعمة الرضا ، وأُنس القربة ، وبسْط الوصلة وغدًا في الجنة وما وُعدوا به من الزلفة والقربة »[٢] .

قال ابن كثير عن مآل الأبرار السابقين :

« وفي مثل هذه الحال فليتفاخر المتفاخرون ، ليستبق إليه المُتسابقون ، كقوله تعالى : ﴿ **لمثل هذا فليعمل العاملون** ﴾ » .

وقال البقاعي في نظم الدرر (٢١ / ٣٢٩ - ٣٣٠) :

« وفي ذلك الأمر العظيم البعيد المتناول - وهو العيش والنعيم والشراب الذي هذا وصفُه - فليرغبْ غاية الرغبة بجميع الجهد والاختيار المتنافسون ، الذين من شأنهم المنافسة ؛ لأنه نفيسٌ جدًّا ، والنفيس هو الذي تحرص عليه نفوس الناس وتتغالى فيه ، والمنافسة في مثل هذا بكثرة الأعمال الصالحات والنيَّات الخالصة » .

الأبرار المُقربون من علَتْ بهم هِمَمُهم وأعمالهم، وحظَوْا بجوار الملك.. كتابهم في عِلِّيِّين ، يشهده المُقربون من الملائكة ، وهذا يُلقي ظلًّا كريمًا طاهرًا رفيعًا على كتابهم ، فهو موضع مشاهدة المُقربين من الملائكة ، ومُتعتُهم بما فيه من كرائم الأفعال والصفات ، وهذا ظِلٌّ كريم شفيف ، يُذكر بقصد التكريم .

تفيض نضرة الأبرار على وجوههم وملامحهم ، وشرابهم مُصفى ، ختامُه مسك . وإنما يكون التنافس في ذلك النعيم ، وفي ذلك التكريم ..

---

(١) لطائف الإشارات للقشيري ٥ / ٢٧٠ .
(٢) الظلال بتصرف ٦ / ٣٨٥٩ - ٣٨٦٠ .

فهو مطلب يستحقُّ المنافسة ، وهو أفق يستحق السباق ، وهو غاية تستحق الغلاب . والدين يتنافسون على شيء من أشياء الأرض ، مهما كبُر وجلّ وارتفع وعظُم ، إنما يتنافسون في حقير قليل ، فانٍ قريب . والدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة ، ولكن الآخرة ثقيلة في ميزاته . فهي إذن حقيقة تستحق المنافسة فيها والمسابقة . ومن عجب أن التنافس في أمْر الآخرة يرتفع بأرواح المتنافسين جميعًا، بينما التنلفس في أمر الدنيا ينحطُّ بها جميعًا. والسعي لنعيم الآخرة يُصلح الأرض ويعمرها ويُطهِّرُها للجميع، والسعي لعَرَض الدنيا يدع الأرض مُستنقعًا وبيئًا ، تأكل فيه الديدان بعضها البعض ، أو يتنهش فيه الهوامُّ والحشرات جلود الأبرار الطيبين ، ويااله من مستنقع آسن !!

إنّ عمر المرء في هذه العاجلة محدودٌ، وعمره في الآجلة لا نهاية له، وإنّ متاع هذه الأرض في ذاته محدود، ومتاع الجنة لا تحُدُّه تصوُّراتُ البشر، وإنّ مستوى النعيم في هذه الدنيا معروف، ومستوى النعيم هناك يليق بالخلود! فأين مجال من مجال؟! وأين غاية من غاية؟! إلا إن السباق إلى هناك»[1]؛ السباق إلى القرب، وتعليق القلب بالله، وجولان الهمم في الملكوت .

* * *

وقال تعالى : ﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون﴾ [الصافات : ٦١] .

لمثل هـذا النعيم الذي لا يُدركه فوتٌ ، ولا يُخشى عليه من نفـاد ،

---

(١) الظلال بتصرف ٦ / ٣٨٥٩ - ٣٨٦٠ .

ولا يعقبُه موتٌ ، ولا يتهدَّدُه العذابُ ؛ لمثل هذا فليعمل العاملون ، فهذا هو الذي يستحق الاحتفال ، وما عداه - مما يُنفق فيه الناس أعمارهم على الأرض - زهيدٌ زهيدٌ ، حين يُقاس إلى هذا الخلود والنعيم الآمن الدائم الراضي ، والتكريم الذي ما فوقه تكريم .

السباق السباق قولًا وفعلًا   حَذِّرِ النفسَ حسرة المسبوقِ

* * *

إنه الإعداد للمهمة الكبرى بوسائل الإعداد الإلهية المضمونة .. قيام الليل .

إن تلقِّي القرآن والنور لثقيل ، يحتاج إلى استعداد طويل .

إنَّ الاصطبار للعبادة ، وقيام الليل والناس نيام ، والانقطاع عن غبشِ الحياة اليومية وسفسافها ، والاتصال بالله ، وتلقِّي وحي الله ونوره ، والأُنس بالخلوة ؛ إن هذا كله هو الزاد لاحتمال القول الثقيل ، والعبء الباهظ ، والجهد المرير الذي ينتظر الرسول ، وينتظر مَنْ يدعو بهذه الدعوة في كل جيل، ويُنير القلب في الطريق الشاقِّ الطويل ، ويعصمه من وسوسة الشيطان ، ومن التيه في الظلمات الحافّة بهذا الطريق المُنير .

إنّ مغالبة هتاف النوم وجاذبية الفراش بعد كدِّ النهار أشدُّ وطئًا ، وأجهد للبدن ، ولكنه إعلانٌ لسيطرة الروح ، واستجابة لدعوة الله ، ومن ثمَّ فإنها أقوم قيلًا ؛ لأن للذِّكْر فيها حلاوته ، وللصلاة فيها خشوعها ، وللمناجاة فيها شفافيتها .. وإنها لتسكب في القلب أنسًا وراحة وشفافية ونورًا .

* * *

قال تعالى : ﴿ واذكر اسم ربك وتبتَّل إليه تبتيلًا ﴾ [المزمل : ٨] .

قال ابن كثير :

« أي أكثر من ذكْره ، وانقطع إليه ، وتفرَّغْ لعبادته إذا فرغت من أشغالك .

وقال ابن عباس : أي أخلص له العبادة . وقال ابن جرير : يقال للعابد : مُتبتِّل »[١] .

«والتبتُّل هو الانقطاع الكُلِّي عما عدا الله، والاتجاه الكُلِّي إليه بالعبادة والذكر والخلوص من كل شاغل ومن كل خاطر ، والحضور مع الله بكامل الحسِّ والمشاعر »[٢] .

* * *

وقال تعالى: ﴿ فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب ﴾ [الانشراح: ٧-٨].

قال ابن مسعود : إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل .

وقال ابن عباس : إذا فرغتَ من الصلاة فانصب في الدعاء .

وقال مجاهد : إذا فرغت من أمْر دنياك فانصب في عمل آخرتك .

وقال علي بن أبي طلحة: إذا صحَّ بدنك فاجعل صحتك نصبًا في العبادة.

قال ابن كثير: إذا فرغتَ من أمور الدنيا وأشغالها وقطعتَ علائقها؛ فانصب إلى العبادة، وقمْ إليها نشيطًا فارغ البال، وأخلص لربك النيَّة والرغبة.

إذا فرغت من شغلك مع الناس ومع الأرض فتوجَّهْ بقلبك كله إلى ما يستحق أن تنصب فيه وتكدَّ وتجهد .. العبادة والتجرُّد والتطلُّع والتوجُّه ، ﴿ **وإلى ربك فارغب** ﴾ إلى ربك وحده خاليًا من كل شيء ، حتى من أمْر الناس الذين تشتغل بدعوتهم .. إنه لا بدَّ من الزاد للطريق .. وهذا الزاد ... هذا هو الطريق .

* * *

(١) تفسير ابن كثير .

(٢) زاد المسير ٩ / ١٦٦ - ١٦٧ .

قال تعالى : ﴿ والذين يُمسِّكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجْر المصلحين ﴾ [الأعراف : ١٧١] .

« إن الصيغة اللفظية ﴿ **يُمسِّكون** ﴾ تصوِّر مدلولًا يكاد يُحسّ ويُرى ، إنها صورة القبض على الكتاب بقوة وجدّ وصرامة .. الصورة التي يُحبُّ الله أن يؤخذ بها كتابه وما فيه .. في غيرتعنُّت ولا تنطُّع ولا تزمُّت .. فالجدُّ والقوة والصرامة شيء ، والتعنُّت والتنطُّع والتزمُّت شيء آخر .. إن الجدَّ والقوة والصرامة لا تُنافي اليُسْر ، ولكنها تُنافي التميُّع ! ولا تُنافي سعة الأفق ، ولكنها تنافي الاستهتار .

والتمسُّك بالكتاب في جدٍّ وقوة وصرامة ، وإقامة الصلاة - أي شعائر العبادة - هما طرفا المنهج الربَّاني لصلاح الحياة .. والتمسُّك بالكتاب في هذه العبارة مقرونًا إلى الشعائر يعني مدلولًا مُعيَّنا .. إذ يعني تحكيم هذا الكتاب في حياة الناس لإصلاح هذه الحياة ، مع إقامة شعائر العبادة لإصلاح قلوب الناس .. فهما طرفان للمنهج الذي تصلح به الحياة والنفوس ، ولا تصلح بسواه.. والإشارة إلى الإصلاح في الآية: ﴿**إنا لا نُضيع أجْر المصلحين**﴾»[1].

قال القشيري في لطائف الإشارات (١ / ٥٨٣ - ٥٨٤) :

﴿ **يُمسِّكون بالكتاب** ﴾ إيمانًا ، ﴿ **وأقاموا الصلاة** ﴾ إحسانًا ، فبالإيمان وجدوا الأمان ، وبالإحسان وجدوا الرضوان ؛ فالأمان مُعجَّل ، والرضوان مُؤَجَّل . ويُقال ﴿ **يُمسكون بالكتاب** ﴾ سبب النجاة ، وإقامة الصلاة تُحقِّق المناجاة ؛ فالنجاة في المآل ، والمناجاة في الحال .

ويُقال : أفرد الصلاة ها هنا بالذكر عن جملة العبادات ؛ ليُعْلَم أنها أفضل العبادات بعد معرفة الذات والصفات .

مَنْ أمَّل سبب إنعامهم ؛ لم تَخْسِر له صفقة ، ولم تخفق له في الرجاء رفقة . مَنْ نقل إلى بابه قَدَمَه ؛ لم يَعْدم في الآجل نعمَه . ومَنْ رفع إلى

---

(١) الظلال ٣ / ١٣٨٨ .

ساحات جوده هِمَمَه ؛ نال في الحال كرمَه . ومَنْ توصَّل إليه بجوده ؛ نال في الدارين شرفَه . ومن اكتفى بجوده ، كان الله عنه خلفه .

* * *

قال تعالى : ﴿ إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورًا عينًا يشربُ بها عبادُ الله يفجِّرونها تفجيرًا يُوفون بالنذر ويخافون يومًا كان شرُّه مُستطيرًا ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ إن هذا كان لكم جزاءً وكان سعيُكم مشكورًا ﴾ [الإنسان : ٥ - ٢٢] .

قال ابن القيم :

« أخبر سبحانه عن العين التي يشرب بها المُقربون صرفًا ؛ لأن شراب الأبرار يُمزج منها؛لأن أولئك أخلصوا الأعمال كلها لله فأخلص شرابهم ، وهؤلاء مزجوا فمزج شرابهم .

إنه سبحانه أخبر عن مزج شراب المقربين بالكافور وبرده ، في مقابلة ما وصفهم به من حرارة الخوف ، والإيثار ، والصبر ، والوفاء بجميع الواجبات التي نبَّه على وفائهم بأضعفها ، وهو ما أوجبوه على أنفسهم بالنذر على الوفاء بأعلاها ، وهو ما أوجبه الله عليهم ، ولهذا قال : ﴿ **وجزاهم بما صبروا جنة وحريرًا** ﴾ ، فإن في الصبر من الخشونة وحبْس النفس عن شهواتها ما اقتضى أن يكون في جزائهم من سعة الجنة ، ونعومة الحرير ، ما يُقابل ذلك الحبس والخشونة ، وجمع لهم بين النضرة والسرور ، وهذا جمال ظواهرهم ، وهذا حال بواطنهم ، كما جملوا في الدنيا ظواهرهم بشرائع الإسلام ، وبواطنهم بحقائق الإيمان ، ونظيره قوله في آخر السورة : ﴿ **عاليهم ثيابُ سُنْدُس خضرٌ وإستبرقٌ وحُلُّوا أساورَ من فضة** ﴾ فهذه زينة الظاهر ، ثم قال : ﴿ **وسقاهم ربهم شرابًا طهورًا** ﴾ فهذه زينة الباطن المُطهَّر لهم من

كل أذى ونقص »[1] .

يقول ابن القيم :

صفَّى المُقرب سعيه فصفا له ذاك الشرابُ فتلك تصفيتانِ
لكنَّ أصحابَ اليمين فأهلُ مزْ ج بالمُباح وليس بالعصيانِ
مُزجَ الشرابُ لهم كما مزجوا همُ الْـ أعمال ذاك المزج بالميـزانِ

قال ابن جرير الطبري :

« الأبرار الذين برّوا بطاعتهم ربهم وأداء فرائضه واجتناب معاصيه .

قال قتادة: ﴿**يوفون بالنذر**﴾ : كانوا ينذرون طاعة الله من الصلاة والزكاة والحجّ والعمرة وما افترض عليهم ، فسمَّاهم الله بذلك الأبرار .

قال قتادة: ﴿**وجزاهم بما صبروا جنةً وحريرًا**﴾: جزاهم بما صبروا على طاعة الله ، وصبروا عن معصيته ومحارمه ؛ جنة وحريرًا .

وقال قتادة : ﴿ **ويُسقون فيها كأسًا كان مزاجُها زنجبيلًا عينًا فيها تُسمَّى سلسبيلًا**﴾: رقيقة يشربها المقربون صرفًا، وتُمزج لسائر أهل الجنة.

﴿ **إن هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكم مشكورًا** ﴾ :

يقول الله تعالى ذكره : يُقال لهؤلاء الأبرار حينئذ : إن هذا الذي أعطيناكم من الكرامة ؛ كان لكم ثوابًا على ما كنتم تعملون في الدنيا من الطاعات .

﴿ **وكان سعيُكم مشكورًا** ﴾ : كان عملكم فيها مشكورًا ، حمدكم عليها ربُّكم ، ورضيه لكم ، فأثابكم بما أثابكم به من الكرامة عليه .

قال قتادة : غفر لهم الذنب ، وشكر لهم الحسن »[2] .

يُسمِّيهم الله في الآية الأولى ﴿ **الأبرار** ﴾ ، ويُسمِّيهم في الثانية ﴿ **عباد الله** ﴾ .. إيناسًا وتكريمًا ، وإعلانًا للفضل تارة ، وللقُرْب من الله

---

(١) حادي الأرواح لابن القيم صـ ١٨٤ - ١٨٥ .
(٢) تفسير الطبري ١٢ / ٢٠٦ - ٢٢٤ .

تارة ، في معرض النعيم والتكريم .

﴿ **يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرًا ...** ﴾ إلى آخر الآيات :

صورة وضيئة شفَّافة لقلوب مخلصة جادة عازمة على الوفاء لله بتكاليف العقيدة ، مع رحمة ندية بعباده الضِّعاف ، وإيثار على النفس ، وتحرُّج وخشية لله ، ورغبة في رضاه ، وإشفاق من عذابه ، تبعثه التقوى والجد في تصوّر الواجب الثقيل.﴿ **يوفون بالنذر** ﴾ فيفعلون ما اعتزموا من الطاعات ، وما التزموا من الواجبات ، فهم يأخذون الأمر جدًّا خالصًا ، لا يُحاولون التفلُّت من تَبِعاته ، ولا التفصِّي من أعبائه ، ولا التخلِّي عنه بعد التزامه ، وهذا معنى أنهم يوفون بالنذر ، فهو أعمُّ من المعنى العُرفي المُتبادر من كلمة « النذر » .

ويُقابل هذا عطاءٌ كريمٌ من مُعطٍ كريم ، ثم يتلقون عليه الودَّ والتكريمَ ، ﴿ **إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورًا** ﴾ .

يتلقَّون هذا النطق من الملأ الأعلى ، وهو يعدل هذه المناعم كلها ، ويمنحها قيمة أخرى فوق قيمتها .

يقول القشيري :

« الأبرار : هم الذين سمت هِمَّتُهم عن المُستحقرات ، وظهرت في قلوبهم ينابيع الحكمة ، فاتقوا عن مساكنة الدنيا ، يوفون بالعهد القديم الذي بينهم وبين الله على وجه مخصوص » .

* * *

وهناك آيات تدعو إلى عُلُوِّ الهمة ؛ بذكر الأجر العظيم أو الكبير أو الكريم لأصحابها ، فعِظَمُ الجزاء والأجر يدعو إلى التنافس والحرص على هذه الأعمال :

قال تعالى : ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيِّب وما كان الله ليُطلعكم على الغيب ولكنّ الله يجتبي من رُسُلِهِ من يشاء فآمنوا بالله ورُسُلِهِ وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجْر عظيم ﴾ [آل عمران : ١٧٩] .

قال تعالى : ﴿ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم ﴾ [المائدة : ٩] .

وقال تعالى : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوِّئنَّهم من الجنة غُرَفًا تجري من تحتها الأنهار نعم أجر العاملين ﴾ [العنكبوت : ٥٨] .

وقال تعالى: ﴿الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجْر كبير ﴾ [فاطر : ٧] .

وقال تعالى: ﴿إنما تُنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشِّرْه بمغفرة وأجرٍ كريم ﴾ [يس : ١١] .

وقال عن المتقين : ﴿ وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوَّأ من الجنة حيث نشاء فنِعْمَ أجْر العاملين ﴾ [الزمر : ٧٤] .

وقال تعالى : ﴿ إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجرًا عظيمًا ﴾ [النساء : ١٤٦] .

وقال تعالى: ﴿لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجرًا عظيمًا ﴾ [النساء : ١٦٢] .

وقال تعالى: ﴿ويُبشِّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرًا كبيرًا ﴾ [الإسراء : ٩] .

وقال تعالى: ﴿ويُبشِّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرًا حسنًا ﴾ [الكهف : ٢] .

وقال تعالى : ﴿ ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرًا عظيمًا ﴾ [الفتح : ١٠] .

وقال تعالى عن الصحابة: ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا ﴾ [الفتح : ٢٩] .

وقال تعالى : ﴿ ومن يتق الله يُكفِّر عنه سيئاته ويُعظِم له أجرًا ﴾ [الطلاق : ٥] .

ومرة أخرى يدعوهم إلى عُلُوِّ الهمة ببيان أن الجزاء هو الفوز العظيم :

قال تعالى: ﴿ومن يُطع الله ورسوله فقد فاز فوزًا عظيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١].

وقال تعالى : ﴿ تلك حدود الله ومن يُطع الله ورسوله يُدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ﴾ [النساء : ١٣] .

وقال تعالى : ﴿ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ﴾ [التوبة : ٧٢] .

وقال تعالى : ﴿ ألَا إنَّ أولياء الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البُشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم ﴾ [يونس : ٦٤] .

وقال تعالى : ﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيُدخلهم ربُّهم في رحمته ذلك هو الفوز المبين ﴾ [الجاثية : ٣٠] .

وقال تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير ﴾ [البروج : ١١] .

* * *

ومرة أخرى يُشير إلى تفاوت الدرجات عند الله ، ويحفز أهل الهِمم العالية إلى الدرجات العُلى .

أنت القتيلُ بكُلِّ مَنْ أحببتَه فاخترْ لنفسك في الهوى من تصطفي

قال تعالى : ﴿ **أفمن اتَّبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير هم درجات عند الله والله بصيرٌ بما يعملون** ﴾ [آل عمران : ١٦٣] .

وقال تعالى: ﴿**وتلك حُجَّتُنَا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجاتٍ من نشاء إن ربك حكيم عليم**﴾ [الأنعام : ٨٣] .

وقال تعالى : ﴿ **ومن يأته مُؤمنًا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجاتُ العُلى** ﴾ [طه : ٧٥] .

وقال تعالى : ﴿ **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير** ﴾ [المجادلة : ١١] .

* * *

قال تعالى : ﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضُها كعرض السماء والأرض أُعدَّت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضلُ الله يُؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ [الحديد : ٢١] .

هذه دعوة من الكبير المتعال إلى ميدان السباق الحقيقي .. للغاية التي تستحق السباق ؛ الغاية التي تنتهي إليها مصائرهم .. إنها دوامٌ يستحق الاهتمام ، فلا بُدَّ من تعلُّق النفوس بها ورفعة الهِمَم إليها .

وليس السباق إلى الدنيا .. إلى إحراز اللهو واللعب والتفاخر والتكاثر بسباق يليق بمن شبُّوا عن الطوق ، وتركوا عالم اللهو واللعب للأطفال

والصغار ، إنما السباق إلى ذلك الأفق ، وإلى ذلك الهدف ، وإلى ذلك الملك العريض ، إلى جنة عرضُها كعرض السماء والأرض .

لأبُدَّ لصاحب العقيدة أن يتعامل مع هذا الوجود الكبير ، ولا يحصر نفسه ونظره وتصوُّرَه واهتمامه ومشاعره في عالم الأرض الضيِّق الصغير .. لأبُدَّ له من هذا ليؤدي دوره اللائق بصاحب العقيدة . هذا الدور الشاق الذي يصطدم بحقارات الناس وأطماعهم ، كما يصطدم بضلال القلوب والتواء النفوس .. ويُعاني من مقاومة الباطل وتشبُّثه بموضعه من الأرض ، ما لا يصبر عليه إلا من يتعامل مع وجود أكبر من هذه الحياة ، وأوسع من هذه الأرض ، وأبقى من ذلك الفناء .

إن مقاييس هذه الأرض وموازينها لا تمثل الحقيقة التي ينبغي أن تستقر في ضمير صاحب العقيدة ، وما تبلغ من تمثيل تلك الحقيقة إلا بقدر ما يبلغ حجم الأرض بالقياس إلى حجم الكون، وما يبلغ عمر الأرض بالقياس إلى الأزل والأبد . والفارق هائل هائل ، لا تبلغ مقاييس الأرض كلها أن تحدِّده ، ولا حتى أن تُشير إليه .

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول : « لموضعُ سوطٍ في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها »،ومن ثَمَّ يبقى صاحب العقيدة في أفق الحقيقة الكبيرة مُستعليًا على واقع الأرض الصغير ، مهما تضخَّم هذا الواقع وامتد واستطال يبقى يتعامل مع تلك الحقيقة الكبيرة الطليقة من قيود هذا الواقع الصغير .. ويتعامل مع الوجود الكبير الذي يتمثَّله في الأزل والأبد .. وفي ملك الآخرة الواسع العريض .. وفي القيم الإيمانية الثابتة التي لا تهتزُّ لخلل يقع في موازين الحياة الدنيا الصغيرة الخادعة .. وتلك وظيفة الإيمان في حياة أصحاب العقائد ، المختارين لتعديل قيم الحياة وموازينها ، لا للتعامل بها والخضوع لمقتضياتها .

روى الإمام أحمد عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « للجنة أقربُ إلى أحدكم من شراك نعله ، والنار مثل ذلك » . أخرجه البخاري .

فمن علم أن الجنة تُزيَّن فوقه وتُنجَّد ، فكيف لا يطير شوقًا إليها ؟!

خَوْدٌ تُزفُّ إلى ضرير مُقعدٍ ‏ ‏ يا محنة الحسناءِ بالعُميانِ

* * *

وقال تعالى : ﴿ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون والذين هم بآيات ربهم يؤمنون والذين هم بربهم لا يُشركون والذين يُؤتون ما آتوا وقلوبهم وجِلَة أنهم إلى ربهم راجعون أولئك يُسارعون في الخيرات وهم لها سابقون﴾

[المؤمنون : ٥٧ - ٦١] .

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : يارسول الله ، الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة : هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر ، وهو يخاف الله ؟ قال : « لا يابنت الصديق ، ولكنه الذي يصلِّي ويصوم ويتصدَّق ، وهو يخاف الله عز وجل »[١] ، فجعلهم من السابقين .

« إن قلب المؤمن يستشعر ويحسُّ آلاء الله في كل نفس وكل نبضة .. ومن ثمَّ يستصغر كل عباداته ، ويستقلُّ كلَّ طاعاته ، إلى جانب آلاء الله ونعمائه .. كذلك هو يستشعر بكل ذرَّة فيه جلال الله وعظمته ، ومن ثمَّ يشعر بالهيبة والوجل ، ويُشفق أن يلقى الله وهو مُقصرٌ في حقِّه ، لم يُوفِّه حقَّه عبادةً وطاعةً ، ولم يُقارب أياديه عليه معرفةً وشكرًا . وهؤلاء هم الذين يُسارعون في الخيرات ، وهم الذين يسبقون لها ، فينالونها في الطليعة ، بهذه

(١) صحيح : رواه أحمد والترمذي .

اليقظة ، وبهذا التطلُّع ، وبهذا العمل ، وبهذه الطاعة ، لا أولئك الذين يعيشون في غمرة ، ويحسبون - لغفلتهم - أنهم مقصودون بالنعمة ، مُرادون بالخير ، كالصيد الغافل يُستدرج إلى مصرعه بالطُّعم المغري ، ومثل هؤلاء في الناس كثير ، يغمرهم الرخاء ، وتشغلهم النعمة ، ويُطغيهم الغنى ، ويُلهيهم الغرور ، حتى يُلاقوا المصير .

تلك اليقظة التي يفرضها الإسلام على قلب المؤمن، والتي يستجيشها الإيمان بمجرد استقراره في القلب .. ليست أمرًا فوق الطاقة ، وليست تكليفًا فوق الاستطاعة، إنما هي الحساسية الناشئة من الشعور بالله والاتصال به ، ومراقبته في السر والعلن ، وهي في حدود الطاقة الإنسانية حين يُشرق فيها ذلك النور الوضيء »[1] .

* * *

قال تعالى : ﴿ في بيوت أذن الله أن تُرفع ويُذكر فيها اسمُه يُسبِّح له فيها بالغُدُوِّ والآصال رجالٌ لا تُلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يومًا تتقلبُ فيه القلوبُ والأبصارُ ليجزيَهم الله أحسنَ ما عملوا ويزيدَهم من فضله والله يرزقُ من يشاءُ بغير حساب﴾ [النور: ٣٦- ٣٨].

قال ابن جرير :

يُصلِّي له في هذه البيوت بالغدوات والعشيات رجالٌ .

وعن سالم بن عبد الله أنه نظر إلى قوم من السوق ، قاموا وتركوا بياعاتهم إلى الصلاة فقال : هؤلاء الذين ذكر الله .

وقال ابن عباس : لا يشغلهم ذلك عن الصلاة المكتوبة ، ولا يشغلهم

---

(١) الظلال ٤ / ٢٤٧٢ - ٢٤٧٣ .

ذلك أيضًا عن إقام الصلاة بحدودها في أوقاتها .

﴿ **وإيتاء الزكاة** ﴾ ، قال ابن جرير : إخلاص الطاعة لله .

عن ابن عباس، قوله: ﴿**وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة**﴾، ﴿**وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة** ﴾ ، وقوله : ﴿ **وأوصاني بالصلاة والزكاة** ﴾ ، وقوله : ﴿ **ولولا فضلُ الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدًا** ﴾ ، وقوله :﴿ **وحنانًا من لدنا وزكاة** ﴾ ، ونحو هذا في القرآن . قال : يعني بالزكاة : طاعة الله والإخلاص .

قال ابن جرير : «إنهم لم تُلههم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر الله ، وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأطاعوا ربهم مخافة عذابه يوم القيامة ؛ كي يُثيبهم الله يوم القيامة بأحسن أعمالهم التي عملوها في الدنيا ، ويزيدهم على ثوابه إياهم على أحسن أعمالهم التي عملوها في الدنيا من فضله ، فيُفضل عليهم من عنده بما أحبَّ من كرامته لهم »[1] .

قلوب تتصل بالله، تتطلَّع إليه وتذكره وتخشاه، وتتجرَّد له وتُؤثره على كل مغريات الحياة . قلوب وضيئة طاهرة ، مُسبِّحة واجفة ، مُصلِّية واهبة .

جدُّوا في انطلاقهم إلى خلَّاقهم ، وراضوا أنفسهم بتحسين أخلاقهم ، فإذا بهم قد أذابهم كربُ اشتياقهم ، أتدري ما حبسك عن لحاقهم ؟! حبُّ الدرهم والدينار .. أما هم ، فانظر إلى مدحهم إلى أين انتهى وصار ﴿ **يخافون يومًا تتقلب فيه القلوبُ والأبصارُ ...** ﴾ ، فما ظنك برزق أرواحهم وأشباحهم ... أفضال وفنون نوال .

* * *

---

(١) تفسير الطبري ٩ / ١٤٧ - ١٤٨ .

وهذه أحاديث نبوية كريمة في عُلُوِّ الهِمَّة ؛ فعَضَّ عليها بالنواجذ :

عن الحسين بن علي رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ الله تعالى يُحِبُّ معاليَ الأمور وأشرافها ، ويكره سَفسافها »[١] .

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنّ الله يُحِبُّ معاليَ الأخلاق ، ويكره سفسافها »[٢] .

وعن كُليب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يُحِبُّ من العامل إذا عمل أن يُحسن»[٣]. فما ظنُّك بالعمل للآخرة، وهو العمل كل العمل .

وقال رسول الله ﷺ : « نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس : الصحة والفراغ »[٤] .

وقال ﷺ : « بادروا بالأعمال الصالحة ، فستكون فتنٌ كقطع الليل المُظلم ، يُصبح الرجلُ مؤمنًا ويُمسي كافرًا ، ويُمسي مؤمنًا ويُصبح كافرًا ، يبيعُ دينه بعَرَضٍ من الدنيا »[٥] .

وقال ﷺ: «المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير ، احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك

(١) صحيح : رواه الطبراني في الكبير، ورواه ابن عدي ، وأبو الشيخ وأبو نعيم في الحلية عن سهل ، وابن عساكر وابن النجار عن سعد ، وصححه الألباني .

(٢) صحيح : رواه الحاكم في المستدرك عن سهل بن سعد ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٨٨٩ ، ١٨٩٠) .

(٣) حسن : رواه البيهقي في شعب الإيمان ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٨٩١) .

(٤) رواه البخاري عن ابن عباس .

(٥) رواه مسلم عن أبي هريرة .

شيء فلا تقل : لو أني فعلتُ كذا كان كذا وكذا ، ولكن قل : قدَّر الله وما شاء فعل »[١] .

وفي الحديث القدسي : « يا عبادي ، إنما هي أعمالكم أُحصيها لكم ثم أوفِّيكم إياها » .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لو كان الإيمانُ عند الثُّريَّا ؛ لتناوله رجال من فارس »[٢] .

ولفظ مسلم : « لو كان الإيمان عند الثُّريَّا ؛ لذهب به رجل من أبناء فارس حتى يتناوله » .

وعن سلمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس شيء خيرًا من ألف مثله إلا الإنسان »[٣] . رجل بألف ، وألف بخفّ .

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « عند الله خزائن الخير والشر ، مفاتيحها الرجال ، فطوبى لمن جعله الله مفتاحًا للخير مغلاقًا للشر ، وويلٌ لمن جعله الله مفتاحًا للشر مغلاقًا للخير »[٤] .

وقال رسول الله ﷺ : « لكل قرن سابق »[٥] .

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة .

(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي .

(٣) حسن : رواه الطبراني في الكبير ، والضياء في المختارة ، وتمّام ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٥٣٩٤)، والصحيحة رقم (٢١٨٣) .

(٤) حسن : رواه الطبراني في الكبير ، والضياء عن سهل ، ورواه ابن ماجه ، وابن أبي عاصم في السنة ، والخرائطي ، والطيالسي ، وأبو يعلى في مسنده ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٤١٠٨) .

(٥) صحيح : رواه أبو نعيم في الحلية عن أنس ، وصححه الألباني في الصحيحة رقم (٢٠٠١) .

وقال ﷺ : « لكل قرن من أمتي سابقون »[١] .

وعن عتبة بن عبد قال : قال رسول الله ﷺ : « لو أنَّ رجلًا يُجَرُّ على وجهه من يوم وُلد إلى يوم يموت هرما في مرضاة الله ، لحقره يوم القيامة »[٢] .

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كما لا يُجتنى من الشوك العنبُ ، كذلك لا يَنزلُ الفجارُ منازلَ الأبرار ، وهما طريقان ، فأيهما أخذتم أدركتم إلَيه »[٣] .

قال يزيد بن مرثد رحمه الله: كما لا يُجتنى من الشوك العنب، كذلك لا ينزل الفجارُ منازلَ الأبرار ، فاسلكوا أيَّ طريق شئتم ، فأي طريق سلكتم وردتم على أهله .

وقال ﷺ : « إن من الناس ناسًا مفاتيح للخير مغاليق للشر ، وإنّ من الناس ناسًا مفاتيح للشر مغاليق للخير ، فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه ، وويل لمن جعل الله مفاتيح الشر على يديه »[٤] .

وانظر إلى عُلُوِّ هِمَّة عمر :

قال رسول الله ﷺ : « إني لأنظر إلى شياطين الجن والإنس قد فرُّوا من عمر »[٥] .

---

(١) صحيح : رواه أبو نعيم في الحلية عن ابن عمر ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٥١٧٢) .

(٢) حسن : رواه أحمد ، والبخاري في التاريخ ، والطبراني في الكبير ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٥٢٤٩) ، والصحيحة رقم (٤٤٧) .

(٣) صحيح: رواه ابن عساكر وأبو نعيم، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٤٥٧٦).

(٤) حسن : رواه ابن ماجه عن أنس ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٢٢٢٣) ، والصحيحة رقم (١٣٣٢) .

(٥) صحيح : رواه الترمذي عن عائشة ، وكذا رواه النسائي وابن شاهين ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٢٤٩٦) .

وعن سعد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ايه ياابن الخطاب ! والذي نفسي بيده ، ما لقيك الشيطان قطُّ سالكًا فجًّا ، إلا سلك فجًّا غير فجِّك » رواه الشيخان .

وانظر إلى عُلُوِّ هِمَّة الصدِّيق في تحصيل العمل لزيادة إيمانه :

روى أحمد بإسناده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : لو وُزِن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجح بهم[(١)] .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ جعل الهموم همًّا واحدًا - همَّ المعاد - كفاه الله سائر همومه ، ومَنْ تشعَّبت به الهموم من أحوال الدنيا ؛ لم يُبال الله في أي أوديتها هلك »[(٢)] .

وقال ﷺ : « مَنْ جعل الهمَّ همًّا واحدًا ؛ كفاه الله سائر همومه » .

وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ كانت الآخرة همَّه؛ جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومَنْ كانت الدنيا همَّه، جعل الله فقره بين عينيه وفرَّق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّر له»[(٣)] .

أخي ، من صفا صُفِّي له ، ومن كدر كُدِّر عليه ، ومن أحسن في ليله كوفىء في نهاره ، ومن أحسن في نهاره كوفىء في ليله ، وإنما يُكال للعبد كما كال ، فمن طلب المنزلة العليا من الجنة فعليه بعُلُوِّ الهمَّة .

---

(١) صحيح : رواه أحمد في الإيمان وفي فضائل الصحابة ، وأخرجه عبد الله بن أحمد في السنة ، والصابوني في عقيدة السلف ، والإبانة لابن بطة ، وقال السخاوي : رواه إسحاق بن راهويه والبيهقي في الشعب بسند صحيح عن عمر ، وهو عند ابن المبارك في الزهد ، ومعاذ بن مثنى في زيادات مسند مسدّد .

(٢) حسن : رواه ابن ماجه عن ابن مسعود ، ورواه أبو نعيم في الحلية ، والحاكم في المستدرك عن ابن عمر ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦١٨٩) .

(٣) صحيح : رواه الترمذي عن أنس ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦٥١٠) ، والصحيحة رقم (٩٤٩، ٩٥٠) .

قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أراد أن يعلم ما له عند الله ، فلينظر ما لله عنده »[١] .

وقال ﷺ : « من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إنّ سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة »[٢] .

وروى البخاري ومسلم وأحمد عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف في الجنة ، كما تراءون الكواكب في السماء » .

وروى البخاري ومسلم وأحمد عن أبي سعيد ، والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم ، كما تراءون الكوكب الدُّرِّيّ الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب ؛ لتفاضلِ ما بينهم » .

وقال ﷺ: «إن أهلَ الدرجات العُلى يراهم مَنْ هو أسفل منهم، كما ترون الكوكب الطالع في أُفق السماء، وإن أبا بكرٍ وعمرَ منهم وأَنْعِما»[٣].

ومن علتْ به هِمَّتُه تتبَّع الأحاديث التي فيها نصٌّ على عِظم أجرها ، وتمسَّك بها ، وحرص على هذه الأعمال ، طلبًا لعظيم الأجر ، ومنها :

---

(١) حسن : رواه الدارقطني في الأفراد عن أنس ، وأبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة وسمرة ، وحسَّنه في صحيح الجامع رقم (٦٠٠٦) ، والصحيحة رقم (٢٣١٠) .

(٢) صحيح : رواه عبد بن حميد والعقيلي في الضعفاء ، وأبو نعيم ، والقضاعي ، والحاكم في المستدرك عن أُبي ، وصحَّحه الحاكم ، وصحَّحه الألباني في الصحيحة رقم (٢٣٣٥) ، وصحيح الجامع رقم (٦٢٢٢) .

(٣) صحيح : رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وابن حبان عن أبي سعيد ، والطبراني في الكبير عن جابر بن سمرة ، وابن عساكر عن ابن عمرو وعن أبي هريرة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٢٠٣١) .

(أ) أحاديث الأعمال التي توجب محبة الله للعبد :

فليس الشأن أن تُحِبَّ ، إنما الشأن أن تُحَبَّ ، شأنٌ عظيمٌ أن تُحِبَّ مولاك ، وأعظم منه أن يُحِبَّك الله عز وجل .. فيحرص الإنسان على الأعمال التي تجلب محبة الله لعبده ، وهذا عنوان عُلُوِّ همة العبد .

ومنها : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يُحِبُّ الرفق في الأمر كله »(١) .

ومنها : قوله ﷺ : « إن الله يُحبُّ العبدَ التَّقيَّ الغنيَّ الخفيَّ »(٢) .

ومنها : قوله ﷺ : « ثلاثة يُحبُّهم الله ، وثلاثة يشنؤهم الله : الرجل يلقى العدو في فئة فينصب لهم نحره ، حتى يُقتلَ أو يفتح لأصحابه ؛ والقوم يسافرون فيطول سراهم ، حتى يُحبُّوا أن يمسُّوا الأرض فينزلون ؛ فيتنحَّى أحدُهم فيُصلِّي حتى يوقظهم لرحيلهم ، والرجل يكون له الجار ، يُؤذيه جاره ، فيصبر على أذاه ، حتى يُفرِّق بينهما موتٌ أو ظعنٌ ، والذين يشنؤهم الله : التاجر الحلَّاف ، والفقير المختال ، والبخيل المنَّان »(٣) .

(ب) من يُعطون أجورهم مرتين :

عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة يُؤتَوْن أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب ؛ آمن بنبيه ، وأدرك النبي ﷺ فآمن به واتبعه وصدّقه ؛ فله أجران ، وعبد مملوك ، أدَّى حقَّ الله وحقَّ سيِّده ؛ فله أجران ، ورجل كانت له أمة ، فغذَّاها فأحسن غذاءها ، ثم أدَّبها فأحسن تأديبها ، ثم أعتقها وتزوَّجها ؛ فله أجران »(٤) .

---

(١) رواه البخاري عن عائشة .

(٢) رواه أحمد ومسلم عن سعد بن أبي وقاص .

(٣) صحيح : رواه أحمد والترمذي وابن حبان والحاكم وابن المبارك وابن أبي شيبة وابن نصر والطحاوي عن أبي ذر ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع .

(٤) رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه .

(جـ) الأعمال التي توجب صلاة الله وملائكته على فاعلها :

ومن تمسَّك بهذه الأعمال علتْ هِمَّتُه ؛ كطلب العلم ، والصلاة في الصفِّ الأول أو الصفوف المقدمة ، ووصل الصفوف ، والسحور .

قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله وملائكته يُصلُّون على المُتسحِّرين»[١] .

(د) الأعمال التي يضحك الله من عبده إذا فعلها ويستبشر بها أو يعجب منها :

وهي أعمال رفيعة تدل على عُلُوِّ هِمَّة صاحبها .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يضحك الله إلى رجلين ، يقتل أحدهما الآخر ، يدخلان الجنة ، يقاتل هذا في سبيل الله فيُقتل، ثم يتوب الله على القاتل فيُسلم، فيقاتل في سبيل الله فيُستشهد». رواه أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه .

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «يعجب ربك من راعي غنم، في رأس شظية بجبل، يُؤذِّن للصلاة ويُصلِّي ، فيقول الله عز وجل : انظروا إلى عبدي هذا يُؤذِّن ويُقيم الصلاة ، يخاف مني ، قد غفرت لعبدي وأدخلته الجنة »[٢] .

(هـ) ومنها الأعمال التي يجري أجرها لصاحبها بعد موته :

والحرص عليها دليل عُلُوِّ الهِمَّة :

---

(١) حسن : رواه ابن حبان والطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحلية عن ابن عمر ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٨٤٤) ، والصحيحة رقم (١٦٥٤) .

(٢) صحيح : رواه أحمد وأبو داود والنسائي ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٨١٠٢) .

عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « سبعٌ يُجرى للعبد أجرُهُنَّ وهو في قبره بعد موته : مَنْ عَلّم علمًا ، أو أجرى نهرًا ، أو حفر بئرًا ، أو غرس نخلًا ، أو بنى مسجدًا ، أو ورَّث مصحفًا ، أو ترك ولدًا يستغفر له بعد موته »[١] .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أربعة تجرى عليهم أجورهم بعد الموت : من مات مُرابطًا في سبيل الله ، ومن علَّم علمًا أُجري له عمله ما عمل به ، ومن تصدَّق بصدقة فأجرها يجري له ما وُجدت ، ورجل ترك ولدًا صالحًا فهو يدعو له »[٢] .

(و) الأعمال التي شهد لها رسول الله ﷺ بالخيرية وتفاضل الناس فيها :

مثل أن يقول ﷺ : « خيركم ... » ، أو « خير الأعمال ... » .

فمن تمسَّك بها علتْ هِمَّتُه :

عن ابن عمرو رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « خياركم أحاسنكم أخلاقًا ، الموطّؤون أكنافًا ، وشرارُكم الثرثارون ، المتفيهقون ، المُتشدِّقون »[٣] .

وقال ﷺ : « خياركم ألينكم مناكب في الصلاة »[٤] .

---

(١) حسن : رواه البزار وسمويه ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٦٠٢) .

(٢) صحيح : رواه أحمد والطبراني في الكبير ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٨٧٧) .

(٣) صحيح : رواه البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٢٦٠) ، والصحيحة (٧٩١) .

(٤) صحيح : رواه أبو داود والبيهقي في سننه ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٢٦٤)، وصحيح أبي داود (٢٦٧٦) والمشكاة (١٠٩٩) .

وقال ﷺ : « خياركم خياركم لنسائهم »[١] .

وقال ﷺ : « خياركم خيركم لأهله »[٢] .

وقال ﷺ : « خياركم من تعلَّم القرآن وعلَّمه »[٣] .

وقال ﷺ : « خير العمل أن تُفارق الدنيا ولسانك رطبٌ من ذكْر الله »[٤] .

وقال ﷺ : « خير المسلمين من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده » . رواه مسلم عن ابن عمرو .

وقال ﷺ : « خير الناس أنفعهم للناس »[٥] .

وعن ابن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « خير الناس ذو القلب المحموم واللسان الصادق » . قيل : ما القلب المحموم ؟ قال : « هو التقي النقي الذي لا إثم فيه ولا بغي ولا حسد » . قيل : فمن على أثره ؟ قال : « الذي يشنأ الدنيا ، ويُحبُّ الآخرة » . قيل : فمن على أثره ؟

---

(١) صحيح : رواه ابن ماجه عن ابن عمرو ، وكذا رواه أحمد ، والترمذي وابن حبان عن أبي هريرة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٢٦٥) .

(٢) صحيح : رواه الطبراني في الكبير عن أبي كبشة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٢٦٦) .

(٣) صحيح : رواه ابن ماجه عن سعد ، والدارمي أيضًا عن سعد ، وأحمد وابن أبي شيبة عن علي ، وابن أبي شيبة عن عثمان .

(٤) صحيح : رواه أبو نعيم في الحلية عن عبد الله بن بُسر ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٢٨٢) ، والصحيحة (١٨٣٦) .

(٥) صحيح : رواه القضاعي ، والطبراني في الكبير ، والدارقطني ، والبيهقي في شعب الإيمان ، وابن عساكر عن جابر ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٢٨٩) .

قال : « مُؤمن في خُلُق حسن »[(١)] .

وقال رسول الله ﷺ : « خير دينكم الورع »[(٢)] .

وقال ﷺ : « خيركم إسلامًا أحاسنكم أخلاقًا إذا فقهوا »[(٣)] .

وقال ﷺ : « خيركم من أطعم الطعام وردَّ السلام »[(٤)] .

وقال ﷺ : « خيركم من تعلَّم القرآن وعلَّمه » . رواه البخاري عن عثمان ، والترمذي عن علي ، وأحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن عثمان .

وقال رسول الله ﷺ : « خيركم من يُرجى خيرُه ، ويُؤمن شرُّه ، وشرُّكم من لا يُرجى خيرُه ، ولا يُؤمن شرُّه »[(٥)] .

وقال ﷺ : « إن خيار عباد الله المَوَفُّون المُطيِّبون »[(٦)] .

---

(١) صحيح : رواه الحكيم ، والطبراني في الكبير ، وأبو نعيم ، والبيهقي في الشعب عن ابن عمرو ، وشطره الأول عند ابن ماجه عن ابن عمرو ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٢٩١) .

(٢) صحيح: رواه أبو الشيخ في الثواب عن سعد، والحاكم والديلمي والبزار، والطبراني في الأوسط عن حذيفة، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٣٠٨).

(٣) صحيح : رواه البخاري في الأدب وأحمد عن أبي هريرة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٣١٢) .

(٤) حسن : رواه أبو يعلى في مسنده ، والحاكم عن صهيب ، ورواه أحمد وأبو الشيخ ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٣١٨) .

(٥) صحيح : رواه أبو يعلى عن أنس ، وأحمد والترمذي عن أبي هريرة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٣٢٠) ، والمشكاة (٩٤٩٣) .

(٦) صحيح: رواه الطبراني في الكبير، وأبو نعيم في الحلية عن أبي حميد الساعدي، وأحمد عن عائشة، ورواه الطبراني في الصغير، وأبو الشيخ، والعقيلي، والمخلدي، وأبو حميد، والبزار عن عائشة، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٢٠٦٢).

وقال ﷺ : « أفضل الأعمال أن تُدخل على أخيك المؤمن سرورًا ، أو تقضي عنه دَيْنًا ، أو تُطعمه خبزًا »(١).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال ﷺ : « أحبُّ الأعمال إلى الله الصلاة لوقتها ثم برُّ الوالدين ، ثم الجهادُ في سبيل الله » . رواه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي .

وقال رسول الله ﷺ : « أفضل المؤمنين إسلامًا من سلم المسلمون من لسانه ويده ، وأفضل المؤمنين إيمانًا أحسنهُم خُلقًا ، وأفضلُ المُهاجرين مَنْ هجر ما نهى الله تعالى عنه ، وأفضلُ الجهاد من جاهد نفسه في ذات الله عز وجل »(٢) .

(ز) ومن عُلُوِّ الهِمَّة حرصُ الرجل على أعمال تُقرِّبُه من رسول الله ﷺ في الجنة :

وهذه غاية شمّر إليها مَنْ فقه عن رسول الله أمْرَه ، ومَنْ أحبَّ جوار الله ورسوله ، وكان من السبّاقين :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كافل اليتيم له أو لغيره ، أنا وهو كهاتين في الجنة » . رواه مسلم وأحمد .

وروى مسلم والترمذي والحاكم عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من عال جاريتين حتى يُدركا؛ دخلتُ أنا وهو الجنة كهاتين».

(ح) أعمال من فعلها حُرِّمت عليه النار :

وقد يسر الله لي جمعَها في كتاب « البحار الزاخرة في أسباب المغفرة » ، مثل

---

(١) حسن: رواه ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج، والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة، وابن عدي عن ابن عمر، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٠٩٦).

(٢) صحيح : رواه الطبراني في الكبير عن ابن عمرو ، ورواه ابن نصر ، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (١١٢٩) ، والصحيحة رقم (١٤٩١) .

قوله ﷺ: «مَنْ كان سهلًا هيِّنًا ليِّنًا حرَّمه الله على النار»[١].

(ط) ومن عُلوِّ الهمة الواردة في السنة حرصُ الرجل على أعمال تُظلُّه في ظلِّ الله يوم لا ظلَّ إلا ظلُّهُ :

ومنها : عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « سبعة يُظلُّهم الله في ظله يوم لا ظلَّ إلا ظلّه : إمام عادل ، وشابٌّ نشأ في عبادة الله عز وجل ، ورجل قلبُهُ مُعلَّقٌ بالمسجد إذا خرج منه يعود إليه ، ورجلان تحابَّا في الله ، فاجتمعا على ذلك وافترقا عليه ، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدَّق بصدقة فأخفاها ، حتى لا تعلم شمالُه ما تُنفق يمينُه » . رواه أحمد والبخاري ومسلم ، ومالك والنسائي والترمذي وابن حبان ومالك ، والبيهقي في السنن الكبرى ، وابن المبارك والدارقطني في « غرائب مالك » ، وأبو نعيم في فضل العادلين .

ومنهم غير هؤلاء السبعة :

عن أبي اليَسَر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «مَنْ أنظر مُعسرًا أو وضع عنه، أظلَّه الله في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّهُ»[٢].

---

(١) صحيح: رواه الحاكم في المستدرك، والبيهقي في سننه عن أبي هريرة، ورواه الطبراني في الأوسط، والعقيلي في الضعفاء، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦٤٨٤).

(٢) صحيح: أخرجه عبد بن حميد، والطبراني في المعجم الكبير، والبغوي في شرح السنة، والبيهقي في «الأربعون الصغرى»، والخطيب في تلخيص المتشابه، والدارمي في السنن، والقضاعي في مسند الشهاب، وابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج، وصحَّحه ابن حجر. انظر تمهيد الفرش في الظلال الموجبة لظلِّ العرش، ومعه بزوغ الهلال في الخصال الموجبة للظلال للسيوطي صـ ٤٩ تحقيق: مشهور حسن سليمان – مكتبة المنار بالأردن .

وأخرجه الطبراني في الكبير بلفظ : « إن أول الناس يستظل في ظل الله يوم القيامة ؛ لرجلٌ أنظر مُعسرًا ، أو تصدَّق عليه » . وإسناده حسن .

وعن سهل بن حنيف رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ أعان مجاهدًا في سبيل الله ، أو غارمًا في عُسرته ، أو مُكاتبًا في رقبته ؛ أظلَّه الله يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه »(١) .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أظلَّ رأس غازٍ ؛ أظلَّه الله يوم القيامة »(٢) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « سبعة في ظل العرش ، يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه : رجل ذكر الله ، ففاضت عيناه ، ورجل قلبُهُ مُعلَّقٌ بالمساجد من شدَّة حُبّه إياها ، ورجل يُحِبُّ عبدًا لا يُحبُّه إلا لله ، وإمام مُقسطٌ في رعيَّته ، ورجل يُعطي الصدقة بيمينه يكاد يُخفيها عن شماله ، ورجل عرضت عليه امرأة نفسها ، ذات منصب وجمال ، فتركها لجلال الله ، ورجل كان في سريَّةٍ مع قوم ، فلقوا العدو فانكشفوا ، فحمى آثارهم ، حتى نجوا ، ونجا أو استُشهد »(٣) .

قال ابن حجر :

وزدْ سبعة إظلالَ غازٍ وعونَه وإنظارَ ذي عُسْرٍ وتخفيف حملِهِ
وحامي غزاةٍ حين ولّوا وعونَ ذي غرامة حق معْ مكاتبِ أهلِهِ

---

(١) صحيح : أخرجه عبد بن حميد ، وصحَّحه ابن حجر .

(٢) صحيح : رواه في المسند ، والخطيب في « موضح أوهام الجمع والتفريق » ، وابن عدي ، والبوصيري في « الزوائد » ، والعلائي في « جامع التحصيل » ، وصحَّحه ابن حجر ، وصحَّحه الضياء عن عمر مرفوعًا .

(٣) أخرجته أم الفضل بيبي الهرثمية في جزئها ، وأبو نعيم في فضل العادلين ، وقال ابن حجر : هذا حديث حسن .

وعن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة على كثبان المسك ، لا يهولهم الفزع الأكبر يوم القيامة : رجل أمَّ قومًا وهم له راضون ، ورجل كان يُؤذِّن في كل يوم وليلة ، وعبد أدَّى حقَّ الله وحقَّ مواليه »[١] .

(ى) ومن عُلُوِّ الهِمَّة الوارد في السنة الحرصُ على أعمال عظيم أجرها ؛ كذكْر السوق ، وعيادة المرضى ، والتسبيح ، وغيره :

عن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من دخل السوق فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمدُ ، يُحيي ويُميت ، وهو حيٌّ لا يموت ، بيده الخير ، وهو على كل شيء قدير ؛ كتب الله له ألفَ ألفِ حسنة ، ومحا عنه ألف ألف سيئة ، ورفع له ألف ألف درجة ، وبنى له بيتًا في الجنة »[٢] .

وقال رسول الله ﷺ : « إذا عاد الرجل أخاه المسلم ؛ مشى في خرافة الجنة حتى يجلس ، فإذا جلس غمرته الرحمة ، فإن كان غدْوةً صلَّى عليه سبعون ألف ملك حتى يُمسي ، وإن كان عشيًّا صلَّى عليه سبعون ألف ملك حتى يُصبح »[٣] .

---

(١) صحيح : رواه الترمذي ، والطبراني في الصغير والأوسط ، وأحمد في مسنده ، والديلمي في الفردوس . وقال المنذري : إسناده لا بأس به . وقال العراقي : أخرجه الترمذي وحسَّنه .

(٢) حسن : رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم عن ابن عمر ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦٢٣١) .

(٣) صحيح : رواه أحمد ، وأبو يعلى ، والبيهقي في سننه عن علي ، وكذا رواه أبو داود والحاكم ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦٨٢) .

(ك) الحرص على أعمال نصَّ الرسول ﷺ أن العبد إذا فعلها بُني له بيت في الجنة ، أو كان ضامنًا على الله ، أو كان أولى الناس بالله ، أو كان من أهل الله :

قال رسول الله ﷺ: «إن أولى الناس بالله، من بدأهم بالسلام»[1].

قال ﷺ : « خمسٌ مَنْ فعل واحدةً منهن كان ضامنًا على الله : مَنْ عاد مريضًا ، أو خرج غازيًا ، أو دخل على إمامه يُريد تعزيره وتوقيره ، أو قعد في بيته ؛ فسلِمَ الناسُ منه ، وسلِمَ من الناس »[2] .

وقال ﷺ : « ثلاثة في ضمان الله عز وجل : رجل خرج إلى مسجد من مساجد الله عزَّ وجلَّ ، ورجل خرج غازيًا في سبيل الله تعالى ، ورجل خرج حاجًّا »[3] .

وقال رسول الله ﷺ : « من بنى لله مسجدًا ؛ بنى الله له بيتًا في الجنة »[4] .

وعليك أخي بهذه الهدية علَّك تكون من أهلها :

قال رسول الله ﷺ: «يدخل الجنةَ من أمتي سبعون ألفًا بغير حساب،

---

(١) صحيح رواه أبو داود عن أبي أمامة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٢٠١١) .

(٢) صحيح : رواه أحمد والطبراني في الكبير عن معاذ ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٢٥٣) .

(٣) صحيح : رواه أبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٠٥١) .

(٤) صحيح : رواه ابن ماجه عن علي ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦١٢٨) .

هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيَّرون، ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكَّلون»[١].

هذه أحاديث طيِّبة في عُلُوِّ الهمة ، فاحرص على أداء أعمالهم جيِّدًا ، وضعْها نُصْبَ عينيك ، فهي أحاديث الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ ، أعلى الناس هِمَّة .. ويكفيك من عُلُوِّ هِمَّته : تفرُّدُه وسؤاله أعلى درجات الجنة .

قال ﷺ : « إن الوسيلة درجة عند الله ، ليس فوقها درجة ، فسَلُوا الله أن يؤتينيها على الخلق يوم القيامة »[٢] .

* * *

---

(١) رواه البخاري عن ابن عباس ، وأحمد ومسلم عن عمران بن حصين ، ومسلم عن أبي هريرة .

(٢) حسن : رواه ابن مردويه عن أبي سعيد ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٩٨٨) ، وفضل الصلاة (٤٩) .